تاريخ المسكرات عند المصريين

والفرس واليونان والرومان

كانت الباخرة المكسيكية «ايم آلون» تمخر عباب البحر على مقربة من شواطىء اولايات المتحدة في اواسط شهر مارس الماضي فاقترنتها احدى بواخر خفر السواحل الاميركية لانها سمعتها من البواخر التي تهرب المسكرات الى اميركا. فاثارت الحادثة ضجة كبيرة في الدوائر السياسية باميركا وكندا وكادت تجر الى مشكلة دولية. فرأينا من باب التفكهة التاريخية ان ننشر في ما يلي مقالة في تاريخ المسكرات عند الامم القديمة وشبهها بالخمرى موضوعها تاريخ المسكرات عند العرب

لا امة على وجه البسيطة الا وعندها مسكر من المسكرات أو مخدّر من المخدّرات كان في الانسان ميلاً فطريًّا الى استعمال ما يسكن الحواس ويفرج الكرب ولو كانت مضارهُ تربي على منافعهِ فاستعمل المسكرات على انواعها وعمَّ استعمالها طبقات الناس بحيهم وفقيرهم عظيمهم وحقيرهم واكثرهم يقول مع ابي نواس

ألا فاسقني خمراً وقل لي هيَ الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وقد اجمعت تواريخ الامم القديمة كالصينيين والهنود والبرابرة والمصريين والفرس على ان المسكرات كانت تستعمل في العصور الغابرة كما تستعمل الآن فكان الصينيون يصنعون الخمر من العنب والمزر من الارز ويشتركون في شربهما سوقة الناس وسراتهم حتى الملوك على عروشهم

وجاء في كتب البراهمة الدينية ذكر كثير من المسكرات وطرق شربها وادمانها ونهاهم الكهنة والحكام عليها. وذكر فيها نوع من الخمر اسمهُ صوما يصنع من عصارة النبات ويسكب للآلهة سكباً فتشربهُ وتسكر به وتطيب نفوسها ويجوز لساكبهِ ان يشربوا بعضهُ فاذا طابت به نفوسهم قالوا ان الآلهة رضيت عنهم وانعمت عليهم بما شعروا به من الانبساط وخفّة الروح

وكثر ذكر الخمر في التوراة ووصف ماينتج عنها من النفع والضرّ فقيل انها « تفرح قلب الانسان » وانها « تلسع كالحية وتلدغ كالافعوان ». ولذلك قال البعض ان الخمر الممدوحة هي السلافة اي عصير العنب غير المختمر والمذمومة العصير المختمر

وعصر المصريون الخمر من العنب واستخرجوا المزر (البيرة) من الشعير منذ خمسة آلاف عام ورسموا صور الكروم والمعاصر والدنان على جدران هياكلهم ومدافنهم. ويجد اهل الغرب دنانهم مختومة باقفار الاّ ان خمرها استحال بخاراً وزاباً. وقد نظر الندمان ختم انائها وعلموا انها من بقايا قوم نوح ولكن لم يكرهم ختمها ولا جلست ظلمة الاحزان والكُرَب. وجلّ ما استفدناهُ منها انا علمنا مكانها من نفوس المصريين القدماء وعلمنا انهم كانوا يعنون بتعتيقها كما يعنى بهِ اكبر محبيها في هذا العصر

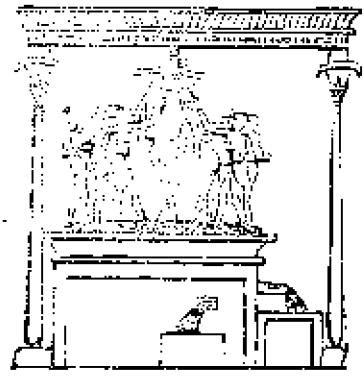

وكانوا يجلسون في مجالس الشراب رجالاً ونساء يطوف عليهم الغلمان والجواري بقلائد الازهار وكؤوس الخمار ونسمان حالم يقول

اشرب على زهر الرياض بشوبهِ زهر الخدود وزهرة الصهباء
من قهوة تنسي الهموم وتبعث الـــشوق الذي قد ضلّ في الاحشاء

والغلمان عراة الابدان لا حلي عليهم ولا حلل الاّ التابين تستر عوراتهم والجواري سادلات الشعور مقلدات النحور على رؤوسهنّ العصائب وفي معاصمهنّ الاساور وفي آذانهن الاقراط وليس على ابدانهنّ غير سيور دقيقة يقصد بها التحلي اكثر من الاستتار

وكانوا يسكرون احياناً ويعربدون ويُحمَلون من مجالس الشراب على المناكب والرؤوس ولم تزل صورهم الى يومنا تؤيد ما تقدم كما ترى في هاتين الصورتين فانهما تمثلان مناظر الخمر نقلاً عن كتاب ولكنسن « عادات المصريين القدماء وآدابهم »

***

وفي كتاب الفرس القدماء اشارات كثيرة الى المسكرات وما فيهِ اسماء شتّى ومنها الحما (اي الحيّا) والحوراء وكان الماديون اهل سكر وخلاعة فسهل على كورش الفارسي التغلب عليهم برجاله القرس سكان الجبال اهل النجدة والشدّة. فلما تمّ لهم النصر عكفوا على الملاهي وانغمسوا في الملاذ. ونقل عن ملكهم زركسيس خليفة كورش العظيم انهُ كان اقدر على شرب الخمر من كل رجل في

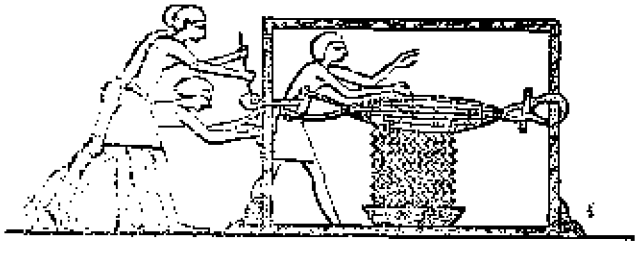

مملكته فلا غرابة اذا تغلب اليونان عليهم بعد ذلك وتخرُّ ملوكهم ادمان المسكرات

ولم يكن اليونان يحرمون السكر ولكنهم كانوا مقتصدين في شربه غاية الاقتصاد شأن اكثر الامم التي الخمر من نتاج ارضها فانهم استخرجوه اولاً من الشعير والتين والتمر ثم اشتهرت خمرهم التي كانوا يستخرجونها من العنب وتفننوا في زرع الكرم وجسبوه من اكبر الجنات الآهلة لكنهم كانوا يراعون شأن اجسادهم ويهتمون بتروبضها وتقويتها ويبتعدون عن كل ما يضعفها فلم يشع السكر بينهم لانهُ مخالف لما كانوا يسعون اليه من تقوية الابدان . وكانت خمرهم ضعيفة قليلة الالكحول ولم يشربوها الا ممزوجة بالماء وكانوا يكثرون قلها بالماء حتى لقد يمزجون الكاس منها بعشرين كاساً منهُ وان قلوا الماء مزجوا الكاس منها باربع او خمس منهُ . واذا اجتمع شبانهم لوليمة وشربوا الخمر ممزوجة الكاس منها بثلاث كؤوس من الماء سمي عملهم اسكنية نسبة الى الاسكنيين البرابرة المتوحشين

ولا يبعد ان بعضهم كان يستحلُّ الشرب ويبالغ فيهِ حتى يسكر لكن كان ذلك نادراً او قليل الشيوع . وغاية ماكانوا يقصدون من شرب الخمر الطرب لا السكر . وصوروا ديونيسوس اله السكر بصورة ولد يضحك ويمزح ثم بصورة شاب جميل الطلعة ثم بصورة رجل طلق المحيَّا محب للعلم والادب

وكانت ايام قطف العنب عندهم ايام سرور وحبور ولعب ومزاح كايام القطاف في جبال لبنان . وسميت الالعاب التي كانوا يلعبونها حينئذٍ كومديا نسبة الى كومُس وهو اسم المركبة التي كان اللاعبون يركبون عليها

ونشبت الحرب الاهلية بين اثينا وسبرطة وطيبة فاستنزفت قوى اليونان وحلَّت عزائمهم فامسوا غنيمة باردة لسكان الجبال وهم أقوام خشنو الطباع جمعَ شملهم فيلبس المقدوني ابو الاسكندر وتغلَّب بهم على اليونانيين وكان رؤساؤهم يكثرون من شرب الخمر وجارام فيلبس على ذلك فشاعت خلَّة السكر وضربت في البلاد اعراقها

يروى ان احد الفلاسفة رفع دعواهُ الى الملك فيلبس فحكم عليهِ لا لهُ فقال اني استأنف الحكم . فقال فيلبس الى من تستأنف وانا الذي حكم عليك . فقال اني استأنف منك سكران اليك صاحياً . فكان لكلامهِ وقع عظيم عند فيلبس فسمع دعواهُ في اليوم التالي وحكم لهُ

ويروى ان فيلبس طلَّق زوجتهُ اولمبياس ام الاسكندر وتزوَّج باخرى واولم لذلك وليمة كبيرة وكان عمُّ زوجتهِ الجديدة حاضراً فيها فتكلم كلاماً اغاظ الاسكندر فرفع

الاسكندر كأس الشراب ورماه بها فاغتاظ فيلبس من ذلك واستلَّ سيفهُ وهجم على الاسكندر ليقتلهُ وكانت الخمر قد نبهت رأسهُ فعثر وسقط على الارض فقال الاسكندر من فوره « انظروا يا رجال مقدونية ان الرجل الذي يريد ان يزحف بكم من اوروبة الى آسيا لا يستطيع ان ينتقل من كرسي الى آخر بلا عثار »

ورقي الاسكندر الى عرش الملك في السنة التالية وكان مثالُ ابيهِ لم يزل نصب عينيهِ فبذل جهدهُ في تجنُّب كل ما يضعف ملكهُ او يمنعهُ من بلوغ الغرض الذي طمحت اليهِ عيناهُ ولم يمضِ عليهِ سنتان حتى عبر إلى آسيا فدوَّخ بر الاناضول ومصر والشام والعراق وبلغ بلاد الهند . قهر الممالك لكن الخمر قهرتهُ وصرع الابطال لكن ابنة العنب صرعتهُ فدخل بلاد قرمان في زي ديونيسوس اله الخمر وحولهُ موكب من السكارى ولبث الحيُّا برأسهِ في سمرقند فقتل صديقهُ كليتوس وكان قد أنقذهُ من القتل . وسكر في برسبوليس عاصمة الفرس فامر بحرق قصر الاكاسرة . ثم اولم وليمة عظيمة لكبار قوادهِ ووعد من يقرع غيرهُ في الشرب بتاج من الذهب فتبارى الرجال في هذا المضمار ونال التاج شاب اسمهُ بروماخوس بعد ان شرب ثلاثين رطلاً (مصريًّا) من الخمر . وعصفت الريح بليلاً تلك الليلة فخرقت ابدان تلك السكارى الى عظامهم فمات اربعون منهم شهداء السكر ورأى ذلك سائر القواد فتذمروا وعملوا ولكن الخمر

معوَّدةٌ غصب النفوس كأنما لها عند ألباب الرجال ودائعُ

فطأطأ لها الاسكندر رأسهُ وبقي على ولائها حتى اخمدت انفاسهُ . فانهُ اقام مرَّة في مجلس الشراب يومين وليلتين فاصابتهُ حمى قضت عليهِ وهو في الثانية والثلاثين من عمره

***

وتاريخ الخمر في بلاد الرومان كتاريخها في بلاد اليونان فان الرومانيين كانوا اولاً رجال بأس ونجدة حاربوا دفاعاً عن انفسهم ثم بقصد الغزو والكسب ومرَّت عليهم السنون وهم اهل حرب وجلاد لا يشربون المسكر ولا يتنعمون بالملاذ . وكانت خمرهم رديئة ولم يكن يشربها الا الرجال من سن الثلاثين فصاعداً واذا شربها امرأة فجزاؤها القتل . وكان يفرض على المرأة ان تحيي زوجها واباها واخوتها تقبيلاً بالفم حتى يشموا نكهة فيها ويكونوا على ثقة انها لم تشرب خمراً . ذكر بلينيوس المؤرخ ان رجلاً رومانيًّا ضرب زوجتهُ حتى ماتت لانها شربت خمراً ولما رفع امرهُ الى روملوس باني رومية في زعمهم عفا عنهُ حاسباً انهُ لم يرتكب جريمة وكان ذلك سنة ٧٠٠ قبل المسيح

المستر أورڤن ريفد

أول من طار بطائرة اتلنتي من القطر في ١٧ ديسمبر ١٩٢٧

تراه في الوسط وإلى شماله وزير مالية الأمريكية يتلقى صدره « صاحب بعض الفضل »

مقتطف مايو ١٩٢٩

راجع الصفحة ٥٤٣